

الزجاج والخشب

أما صناعة الزجاج فقديمة في إيران ولا غرو فان هذه الصناعة معروفة في الشرق الأدنى منذ العصور القديمة وقد أشار الكاتب الاغريقي ارستوفان Aristophanes (من كتاب القرن الخامس قبل الميلاد) في إحدى رواياته الى استعمال كؤوس النبيذ من الذهب والزجاج في البلاط الايراني . كما عثر المتقبن عن الآثار في إقليم لورستان غربي الهضبة الايرانية على بعض أواني من زجاج نصف شفاف ومائل الى اللون الأخضر ، وعلى أسورة من زجاج مطعم بزجاج آخر مختلف الألوان .

ومن أقدم ما نعرفه من التحف الزجاجية الايرانية ذات الشأن صحن من العصر الساساني وجد في شمالي إيران ومحفور فيه رسم طائر خرافي ، وهو محفوظ الآن في إحدى المجموعات الأثرية الخاصة في طهران .

ومع ذلك كله فان الأرجح أن كثيرا من الأواني الزجاجية التي استعملها الايرانيون القدماء كانوا يستوردونه من سورية ، كما يشهد بذلك نوع التحف الزجاجية التي عثر عليها في حفائر السوس والمدائن .

ولعل أقدم ما نعرفه من الأواني الزجاجية الايرانية في العصر الاسلامي يرجع الى القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة (الثامن والتاسع بعد الميلاد) ؛ ويشبه كثيرا ما عثر عليه المتقبن عن الآثار في سامرا^(١) .

(١) راجع C. J. Lumu: Das Glas von Samarra.

ومن التحف الزجاجية الإيرانية في فجر الإسلام نوع تزينه زخارف محزوزة من خطوط ودوائر وأشكال هندسية . وقد تمثل تلك الزخارف رسوم طيور أو حيوانات ، كما نرى في طبق مكسور ، يظن أنه وجد في أطلال مدينة الري ، وهو محفوظ الآن في مجموعة ولفريد بكي Wilfred Buckley ، وقوام زخرفته رسم طائر خرافي ^(١) .

ولكن الواقع أن تمييز التحف الزجاجية في شتى أنحاء العالم الإسلامي في القرون الأولى بعد الهجرة أمر غير يسير . بل إننا لا نجد فرقا عظيمًا بين بعض الأباريق الفاطمية من البلور الصخري وإبريق من نفس المادة ، عثر عليه في إيران ^(٢) ، و محفوظ الآن في مجموعة ولفريد بكي ^(٣) سألفة الذكر ^(٤) .

وفي كتر كاتدرائية سان ماركو بمدينة البندقية سلطانية من الزجاج الأزرق الفيروزي ، محفور فيها كلمة « نراسان » وقوام زخرفتها رسوم أرائب محفورة . وأكبر الظن أن هذه التحفة من صناعة إيران أو العراق في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ^(٥) .

وقد وجدت في مدينة الري بعض نماذج أخرى من التحف الزجاجية ترجع إلى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة (١٠ - ١١ م) .

(١) انظر A Survey of Persian Art ج ٦ لوحة ١٤٤٠ ح .

(٢) راجع كتابنا « كنوز الفاطميين » ص ١٨٧ وما بعدها .

(٣) انظر A Survey of Persian Art ج ٦ لوحة ١٤٤١ أ و ب .

(٤) انظر W. Buckley : Two glass vessels from Persia في Burlington

Magazine (سنة ١٩٣٥) ص ٦٦ - ٧١ .

(٥) راجع C.J. Lamm: Mittelalterliche Gläser und Schnitarbeiten

ج ١ ص ١٥٨ - ١٥٩ ، ج ٢ لوحة ٥٨ .

ثم ازدهرت بعد ذلك صناعة الزجاج في إيران ، وصارت تصنع منها التحف المختلفة الأشكال ، ونجح الصناع في الوصول إلى ضرب من الزجاج الأبيض المضغوط يقلدون به البلور الصخري الذي كان يستعمل في مصر على يد الفنانين في الدولة الفاطمية . واستخدم الزجاجون الإيرانيون شتى أنواع الصناعة في الزخرفة ، من ضغط وحفر وبروز وأسلاك ملفوفة ، وكانوا يصنعون التحف الزجاجية الصغيرة على شكل حيوان ، كما يظهر من سمكة زجاجية صغيرة عثر عليها المنقبون في مدينة الري . أما موضوعات الزخرفة فكانت خليطاً من الرسوم الهندسية والفروع النباتية والكتابات ورسوم الحيوان^(١) ، بل والرسوم الآدمية في بعض الأحيان^(٢) .

وقد عرف الإيرانيون طلاء الزجاج بالمينا ، كما يظهر من النماذج التي عثر عليها في شيراز وهمدان ونيسابور وسمرقند والري وسأوه (انظر شكل ١٦٨) . ويلوح أن غزو المغول قضى على ازدهار صناعة الزجاج في إيران ، كما يظهر من ندرة التحف الزجاجية الإيرانية التي يمكن نسبتها إلى إيران بين القرنين السابع والتاسع بعد الهجرة (الثالث عشر والرابع عشر بعد الميلاد) . ولكن المعروف أن أحد الشعراء في بلاط تيمور في بداية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) كتب أن هذا العاهل الكبير جمع في سمرقند نخبة من أمهر صانعي الزجاج في ذلك العصر فازدهرت هذه الصناعة على يدهم .

(١) انظر C. J. Lamm : Glass from Iran in the National Museum,

Stockholm

(٢) A Survey of Persian Art ج ٦ ، لوحة ١٤٤٤ ب .

ومن التحف الزجاجية التي يمكن نسبتها الى مصانع الزجاج التي قامت على يد الزجاجيين السوريين في سمرقند صحن من الزجاج في المتحف البريطاني (انظر شكل ١٦٩)، وهو عسلي اللون وممّوه بالمينا، وقوام زخرفته رسم إنسان أو ملاك ذي جناحين وفي يده قنينة نبيذ إيرانية الشكل .

وذاعت في القرنين العاشر والحادي عشر بعد الهجرة (١٦ - ١٧ م) صناعة الأباريق والقنينات الزجاجية الطويلة المشوقة (انظر الأشكال ٩٨ و ١٧٠ و ١٧١) .

وكانت شيراز أعظم مراكز هذه الصناعة، كما شهد بذلك بعض الرحالة الذين زاروا إيران في ذلك العصر ولا سيما شاردان Chardin وهربرت Herbert وتأفرييه Tavernier . وكان الزجاج في شيراز أبيض أو أخضر أو أزرق، ولم تكن به زخارف مقطوعة أو محفورة .

والأرجح ، بوجه عام ، أن صناعة الزجاج لم تلق في إيران ما لقيته سائر الصناعات الفنية من عناية . ولعل كثيرا من النماذج التي يعثر عليها المنقبون في إيران ليست من صناعة البلاد نفسها ؛ وإنما استوردتها من سائر أنحاء الشرق الأدنى . وأما منتجات القرنين العاشر والحادي عشر بعد الهجرة (١٦ - ١٧ م) فلا شك في أنها صنعت في إيران، وأنها تأثرت بالأساليب الفنية التي نقلها بعض صنّاع الزجاج الذين قدموا من مدينة البندقية . ومهما يكن من الأمر فإن ألوانها جميلة وفيها أشكال كانت وقفا على إيران؛ ولكنها ليست ذات شأن فني عظيم .

وقد عرفت بعض المدن الإيرانية منذ بخر الإسلام بمهارة أبنائها في صناعة التحف وقطع الأثاث من الخشب . وكان على رأس هذه المدن

الرى وقم ، فازدهرت فى الأولى صناعة الأمشاط والأوانى كما اشتهرت الثانية بصناعة الكراسى من خشب الخللج المأخوذ من غابات طهران^(٢) .

على أن أقدم ما نعرفه الآن من التحف الخشبية الإيرانية عمودان وثلاث حشوات من الخشب المحفور ، كشفها الأستاذ أندريف Andreieff فى إقليم تركستان الغربى^(٣) . وأكبر الظن أنها ترجع الى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) . أما زخارفها فتشبه بعض الزخارف الجصية التى توجد فى سامرا ، وزخارف العصر الطولونى وبداية العصر الفاطمى فى مصر ، والزخارف الجصية فى ناين^(٤) ، وقوامها رسوم أنواع مختلفة من الزهور محورة عن الطبيعة تحويرا كبيرا ومحفورة حفرا عميقا .

وثمة أبواب خشبية كانت فى قبر محمود الغزنوى وترجع الى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . وهى محفوظة الآن فى قلعة أبرا بالهند . وكان فى باطن هذه الأبواب حشوات خشبية تشبه فى زخارفها التحف الخشبية التى عثر عليها فى إقليم تركستان الغربى^(٥) ؛ أما

(١) الخللج كلمة فارسية معربة لنوع من الشجر يؤخذ منه خشب ثمين تصنع منه السفن والأوانى .

(٢) أنظر Le Strange: The Lands of the Eastern Caliphate ص ٢٢٧

(٣) راجع B. Denike : Quelques monuments de bois sculpté au

Turkestan Occidental فى مجلة Ars Islamica (سنة ١٩٣٥) ص ٦٩ — ٨٥

(٤) راجع كتابنا « الفن الإسلامى فى مصر » ص ٢٤ — ٣١ و ٦٨ — ٧٨

Pauty : Les bois sculptés Jusqu'à l'époque ayyoubide ؛ ٩٩ — ٩١

لوحات ١٢ — ١٥ ؛ و Ettinghausen: Ägyptische Holzschlitzereien aus

Islamischer Zeit فى مجلة المتاحف الألمانية Berliner Museen (سنة ١٩٣٣)

ص ١٩ شكل ١٥

(٥) أنظر A Survey of Persian Art ج ٦ ، ص ١٤٦٢

سطحها الخارجى ففيه أربع حشوات مزينة بأشكال نجمية من الخشب ذى الزخارف العجيبة فى دقتها^(١) ، والتي يتجلى بها توفيق الفنان فى تنويع سطح الرسوم وبروز الزخرفة ، تنويعا يجعلها متعددة الأسطح ، وتبدو كأن بعضها يظهر من ثنايا البعض الآخر أو يتحرك فوقه ، ولا عجب فقد كانت غزينة فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) مركزا عظيما من مراكز الثقافة الايرانية ، وازدهرت فيها الفنون ونما فيها طراز فنى امتاز بنضوجه وبثروته الزخرفية .

وفى مجموعة رابنو ثلاث حشوات من الخشب متشابهة فى شكلها ومزينة بكتابة بالخط الكوفى البسيط ذات حروف بارزة وجميلة . ويحيط بكل حشوة منها شريط من الكتابة ، يضم بين جانبيه إطار من منطقة ذات زخرفة من فروع نباتية متصلة وينتهى هذا الإطار المدبب فى أعلاه بمنطقة مثلثة تشبه المروحة . وفى الإطار والمنطقة المذكورة كتابات على إحداها اسم عضد الدولة وتاريخ « سنة ثلث وستين وثلاث مائة »^(٢) .

وفى دار الآثار العربية بالقاهرة حشوة خشبية من هذا الطراز وعليها نفس التاريخ^(٣) (انظر شكل ١٧٢) . وفيها حشوة أخرى ، قوام زخرفتها موضوع زخرفى نباتى ، يملوه سطران من الكتابة الكوفية ، وتحف به كتابة أخرى فى شريط على هيئة عقد إيرانى^(٤) ، مما يجعل هذه الحشوة تشبه المحاريب

(١) أنظر G. Migeon : Manuel d'art musulman ج ٢ ص ٢٩٣ شكل ١١٣

(٢) راجع Wiet: L'Exposition persane de 1931 ص ١٠ - ١١ ،

لوحة ١٢

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢ وما بعدها .

(٤) المصدر نفسه ، لوحة ١٢

الإيرانية التي عرفت في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) .
 وزخارف هذه التحفة تمتاز باتزانها وتوافقها وحسن توزيعها وبعدها عن
 الطبيعة ، وهي بارزة بروزاً أساسه حفر الأرضية التي حولها لتبدو الزخرفة
 بارزة فوقها . ولسنا نعرف تماماً مصدر هاتين الحشوتين المحفوظتين
 في دار الآثار العربية ، فانهما تشيران إلى ضريح شيخي ربما كان في إيران
 نفسها أو في بلاد الجزيرة ، وقد كان عضد الدولة في التاريخ المذكور يحكم
 من إيران مقاطعات خوزستان وفارس وكرمان .

وفي معرض فريير Freer Gallery باب جميل ينسب إلى نهاية القرن
 الخامس الهجري^(١) (الحادي عشر الميلادي) ، قوام زخرفته مناطق مستديرة
 ومتصلة ، ومكوّنة من دوائر ذوات مركز واحد ، فيها كتابات بالخط الكوفي
 المزهر ، وفي أكبر هذه المناطق - وهي الوسطى - موضوع زخرفي
 نباتي . وبين تلك المناطق مربعات صغيرة مزينة بوريقات نباتية . ويتجلى
 في زخرفة هذا الباب بعض الأساليب التي نعرفها في زخارف الأبواب المعدنية .
 وفي المتحف المتروبوليتان بنيويورك حشوة خشبية مؤرخة من
 سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) وعليها اسم الأمير علاء الدولة كرشاسب في كتابة
 كوفية محصورة بين رسم عقد إيراني ، تحف به منطقتان من الزخارف النباتية^(٢) .
 وقد كان الأمير عاملاً على يزد من قبل السلاجقة .

(١) انظر A Survey of Persian Art ج ٦ ، لوحة ١٤٦١

(٢) انظر Wiet : Inscriptions cunfique de Perse في المجلد ٦٨
 من منشورات المجمع الفرنسي (Mémoires de l'Institut Français, t. LXVIII
 Wiet : L'Exposition persane ؛ وراجع Mélanges Maspéro, vol. III)

وثمة تحف خشبية أخرى من العصر السلجوقي، جلها من قونية، ومن أخطرها شأنًا منبر جامع علاء الدين في تلك المدينة، وزخارفه محفورة ومخزومة وتسود فيها الزخارف الهندسية على شكل الاطباق النجمية التي أقبل عليها الفنانون المصريون في عصر المماليك، رعى هذا المنبر كتابة تفيد أنه عمل «الحاجي الأخلاطي» سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م)^(٢). ومنها كذلك باب خشبي في المتحف الإسلامي باستانبول، عليه زخارف قوامها دائرة ذات أطباق نجمية فيها رسوم نباتية، وفوق الدائرة وتحتها رسوم أسدين وغريفونين، وترجع هذه التحفة الى القرن السابع الهجري^(٣) (الثالث عشر الميلادي). والحق أن هذا المتحف يشتمل على بعض تحف أخرى من العصر السلجوقي؛ ولكنها من آسيا الصغرى^(٤).

وقد استخدم الفنانون الإيرانيون في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) العناصر الهندسية في زخرفة الخشب؛ كما استعملوا الرسوم النباتية في الأساليب الفنية الإيرانية. ومن أبداع أمثلة الزخارف الهندسية ما تراه في سقف بمدخل الإيوان الرئيسي في المسجد الجامع بشيراز^(٥). كما أننا نجد أمثلة دقيقة من الزخارف النباتية في بعض المنابر المصنوعة في القرن الثامن

(١) راجع Migeon: Manuel d'art musulman ج ١ ص ٣٣٠ شكل ١٣٩؛

Sarre: Seldschukische Kleinkunst ص ٢٧ - ٢٨ ولوحة ٦

(٢) انظر Répertoire chronologique d'épigraphie arabe ج ٨

ص ٢٨٩ رقم ٢٢٠٠

(٣) انظر E. Kühnel: Die Sammlung Türkischer und Islamischer

Kunst in Tschinili Kösek ص ١٧ لوحة ١١

(٤) المصدر السابق ١٢٦ - ١٧

(٥) انظر A Survey of Persian Art ج ٦ لوحة ١٤٦٤ أ

(١) الهجرى (الرابع عشر الميلادى)، وفى بعض الأبواب وكراسى المصاحف .
ومن الأخيرة كرسى مصحف من الخشب المختم والمطعم ، مؤرخ من
سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) ومحفوظ الآن فى المتحف المتروبوليتان بنيويورك
وعليه اسم صانعه حسن بن سليمان الأصفهاني . (أنظر شكل ١٧٣) . وثمة
قطع أصاب بها الفنان توفيقا عظيما فى الجمع بين الزخارف النباتية والرسوم
الهندسية ، مثل أبواب مسجد أحمد يسوى فى تركستان وهى مؤرخة من
بداية القرن التاسع الهجرى (١٣٩٧ - ١٢٩٩ م) ، وعليها اسم صانعها :
« عز الدين » .

وزاد ازدهار صناعة الحفر فى الخشب إبان القرن التاسع الهجرى
(الخامس عشر الميلادى) ، كما يظهر فى باب ذى زخارف محفورة وملونة ،
وهو من خشب الجوز وموجود فى جامع شاه زنده بمدينة سمرقند ، (٤)
كذلك فى بابين من قبر تيمور (جورامير) محفوظين الآن فى متحف الهرميتاج

(١) كتب الأستاذ برونشتاين Leo Bronstein (فى المصدر السابق ج ٣ ص ٢٦١٧)
أن بين هذه المنابر منبرا خشبيا بالمسجد الجامع فى ناين (انظر المصدر نفسه ج ٦ لوحة ١٤٦٤ ب) ؛
ولكننا لا نوافقه على هذا الرأى وأكبر الظن أن هذا المنبر يرجع الى القرن الخامس أو السادس
بعد الهجرة (١١ - ١٢ م) . وحسبنا أن صلة وثيقة بالزخارف التى نعرفها فى سامرا
وفى الطراز الطولونى وفى الرسوم الجصية بجامع ناين .

(٢) انظر Dimand : A dated Koran-stand (Bulletin of the Metropolitan Museum of Art, XXII)
Dimand : ١١٥ - ١١٧ ؛ وراجع :
Dated specimens of Mohammedan art in the Metropolitan Museum
of Art, Part I (Metropolitan Museum Studies) ١٠٥ - ١٠٢

(٣) انظر A Survey of Persian Art ج ٦ لوحة ١٤٦٧

(٤) انظر Migeon: Manuel d'art musulman ج ١ ص ٣٣٥ وشكل ١٤٢

Hermitage^(١) (انظر شكل ١٧٥) وفي بعض أبواب المساجد والمدارس ، مما وفق الصناعات فيه الى أدق الزخارف النباتية والهندسية مع أجمل الكتابات بالخط الكوفي والنسخي والثلث .

وكان إقليم مازندران مشهورا بغاباته الواسعة وأخشابها الثمينة ؛ وقد عثر فيه على بعض تحف خشبية نفيسة ، معظمها أبواب وتربات عليها توارىخ صناعتها وأسماء صانعيها ، وللكتابة في زخرفة هذه التحف المكان الأول^(٢) .

ومن التحف الخشبية في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) مصراع باب من خوقند في فرغانة ومحفوظ الآن في المتحف المتربوليتان^(٣) . وقوام زخرفته رسوم غائرة من الفروع النباتية والأرابسك ويحف بها إطاران من فروع نباتية أقل منها عمقا في الحفر .

ومما ينسب الى القرن نفسه مصراعان من باب خشبي ، عليهما « عمل على بن صوفي الباساني » سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م .) ومحفوظان بالمتحف الأهلي في طهران (انظر شكل ١٧٦) ؛ ولكننا نرى في هاتين التحفتين - وفي غيرهما من التحف الخشبية المنسوبة الى القرنين العاشر والحادي عشر بعد الهجرة - برودا وجفافا يندران بانحطاط صناعة الحفر في الخشب في ذلك العصر الذي سادت فيه فنون الألوان من سجاد وتصوير وخزف .

(١) A Survey of Persian Art ج ٦ لوحة ١٤٦٨ و ١٤٧٠

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٦٢٢ وما بعدها ؛ و H.L. Rabino: Mazandaran and Astrabad

(٣) راجع Dimand: Handbook of Mohammedan Decorative Art



وثمة صناعات فنية أخرى أتيح للايرانيين أن ينبغوا فيها، ولكن المجال يضيق عن إيفائها حقها من الدرس في هذا الكتاب .

فالحلى والجواهر كان لها شأن عظيم في الحياة الاجتماعية الإيرانية، ولا سيما في البلاط، وفي ملابس أهل الطبقة العالية، فلا عجب إن تخصص في صناعتها مهرة الفنانين في زنجان وإصفهان وتبريز وسلطانية وغيرها من البلدان الصناعية في إيران، فضلا عن الفنانين الذين عكفوا على صناعة الأواني الفاخرة من الذهب والفضة وتزيينها بالجواهر والمينا لتستعمل في الحفلات وسائر المناسبات العظيمة . ومن تلك الأواني صحن ذهبي في مجموعة كازروني بك في القاهرة، يظهر بعض التأثير الأوربي فيما عليه من رسوم الزهور والطيور بالمينا (انظر شكل ١٦٧). وعلى هذا الصحن كتابة تدل على أنه هدية من فتح على شاه الى السياسى المستشرق الانجليزى السرجور اوسلى Sir Gore Ouseley سنة ١٢٢٨ هـ (١٨١٣ م) . وفي وسطه رسم أسد تحته العبارة الآتية :

رقم محمد جعفر .

والواقع أن قصور إيران لا تزال عامرة بالتحف النفيسة التي ترجع إلى القرون الثلاثة الماضية، والتي تمتاز بمادتها الثمينة وصناعتها الدقيقة، ولكن تأثرها بالأساليب الفنية الغربية، تأثرا يختلف مداه، يحملنا على اعتبارها تحفا تدل على النروة والأبهة أكثر مما تدل على الذوق الفنى والأساليب الزخرفية التي عرفت عن الإيرانيين في عصورهم الذهبية .

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير الى عرش الشاه اسماعيل الصفوى والى العرش المعروف باسم عرش الطاووس . اما الأول فمحفوظ الآن في استانبول ؛ وهو غاية في دقة الصناعة وجمال الزخرفة . والثانى فى قصر جالستان بمدينة طهران ، وهو فخر جدا ويذهب كثير من العلماء الى أنه صنع فى القرن الثانى عشر بعد الهجرة (الثامن عشر الميلادى) من مواد العرش القديم الذى غنمه نادر شاه أثناء حروبه فى الهند .